(بابلو بيكاسو .. فنان القرن العشرين)

(١٨٨١ - ١٩٧٢)

أسلحة النعاس إخترقت الليل
والأخاديد الرائعة التي تفرق بين رؤوسنا
من خلال الماس ، كل الأوسمة مزيفة
تحت السماء البراقة ، الأرض لا ترى

*

وجه القلب فقد كل ألوانه
والشمس تبحث عنا ، والجليد أعمى
إذا هجرنا الأفق ، فالأفق له أجنحته
ونظراتنا على البعد تبدد الأوهام

" بابلوخوزيه روبزبلاسكوار بيكاسو " ، ولد بمدينة ملقة الأسبانية في اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٨٨١ .

كان والده يعمل مدرسا للرسم بمدرسة الفنون بالمدينة ، ثم أمينا لمتحف المدينة وكان يهتم برسم الطبيعة الصامتة والطيور ، خاصة الحمام (ولعل هذا ما أثر على " بيكاسو " في اختياره الحمامة رمزا للسلام عام ١٩٤٩) ..

وأغلق المتحف فرحل خوزيه وأسرته إلى مدينة كورونا ليعمل مدرسا (بمعهد داجواردا) ، وفي عام ١٨٩٤ اكتفى الرجل بعمله وقرر أن يهجر الرسم لأنه لم يحقق فيه شيئا يذكر ، ويسلم ابنه كل معداته عله يحقق ما فشل هو فيه .

وفي عام ١٨٩٥ رحلت الأسرة مرة أخرى إلى برشلونة حيث عمل الأب .. مدرسا (بمدرسة لالونجا) ، واستهوت حفلات مصارعة الثيران الصبي الصغير (وظهر تأثره في أغلب لوحاته) .

والتحق " بابلو " ابن الخامسة عشرة (بمدرسة لالونجا) لتفوقه البالغ في امتحان القبول .. وعرضت لوحاته المبكرة في معرض مدريد عام ١٨٩٧ وكان والده هو موديله في معظم هذه اللوحات ، والتحق " بابلو " ، أكاديمية سان فرناندو بمدريد ، ولكنه سرعان ما ضاق بالدراسة الأكاديمية وقرر أن يتعلم من الطبيعة .

ومع مطلع العام الأول من قرننا العشرين سافر " بابلو " لأول مرة إلى باريس وهناك باع أولى لوحاته وكانت عبارة عن ثلاث مشاهد لمصارعة الثيران بمائة فرنك ، ولكنه عاد إلى مدريد قبل أن يكمل عاما واحدا ، ليصدر مع الأديب الأسباني " فرانشسكو سولر " مجلة أدبية فنية ، لم يظهر

منها غير عددين لأنه غادر مدريد إلى برشلونة ليقيم بها معرضا لأعماله التي وقع عليها لأول مرة لقب أمه وهو " بيكاسو " وتوجه مرة ثانية ، إلى باريـــس ليقيم معرضا أشاد به الناقد الفرنسي " فيليسيان فولجا " ، ولوحظ أن اللون الأزرق والشحوب والبؤس قد حلت جميعا محل الألوان الوردية والبورتريهات المبتهجة ، فقد أصبح " بيكاسو " يؤمن بأن الفن وليد الحزن والألم " وبالفعل عانى " بيكاسو " كثيرا في أثناء رحلته الأولى إلى باريس وإقامته القاسية على أسطح منازلها واضطراره إلى بيع لوحاته في حي "مونمارتر" ، ولعل هذا ما دفعه إلى التخلي عن رسم الطبيعة الصامتة ، والاهتمام برسم الإنسان والبورتريهات بصفة خاصة ، وبعد معاناة خمسة أعوام كاملة بدأت حدة الحزن والتوتر تخف في ألوانه وخطوطه وموضوعاته على السواء .

وهكذا التقى " بفرناند أوليفييه " التي اقتسمت معه أيام الشقاء ولحظات السعادة ، ولكنها كانت تعاني من الأعداء الثلاثة الذين أصبحوا بفضل "بيكاسو" أصدقاء : كلب ، وقطة ، وفأر . وكانت تعاني أيضا من عرى "بيكاسو" طوال إقامته بالمرسم ، ولكنها لم تكن تعاني من قصر قامة "بيكاسو" ، هذا القصر الذي كان يعاني منه هو نفسه ، وطالما حلم في بضعة سنتيمترات طولا .

ولم يكن " بيكاسو " قد بلغ الخامسة والعشرين عندما انتهى من لوحته الشهيرة (فتيات أفينيون) التي تعد بداية للمرحلة التكعيبية في فن " بيكاسو " ، هذا الفن الغزير والمتنوع ، فقد جرب مختلف الخامات ورسم بمختلف الألوان إلى جانب ممارسته للحفر والنحت .

واستمرت المرحلة التكعيبية حتى عام ١٩١٣ ، برزت خلالها لوحات الصور الشخصية وأغلفة الكتب .

وبدأت مرحلة (الكولاج) بأنواعه المختلفة فاستخدم ، " بيكاسو " في لوحاته الحروف البارزة وقصاصات الصحف ، وورق الحائط وقطع الخشب والرخام والرمل والمواد الأخرى .

وفي عام ١٩١٧ تعرف " بيكاسو " إلى (كوكتو) ، الذي عرفه بدوره بـــ " باجيليف " ليشتركا معا في وضع تصميمات للباليه الروسي الذي كان يعرض في إيطاليا .

وفي هذا العام نفسه تزوج " بيكاسو " من راقصة الباليه الروسي " أولجا كوكلوفا " لفترة قصيرة أنجز خلالها تصميمات عديدة لباليهات مختلفة .

وارتبط عام ١٩٢١ بثلاث مناسبات في حياة " بيكاسو " الشخصية والفنية فرزق بمولوده الأول " بول " وطرق أبواب (الكلاسيكية الجديدة) ، وأدخل موضوع الأمومة إلى لوحاته التي لم تكن تعرف هذا اللون من العواطف الإنسانية .

وعندما صدر (مانيفستو) الحركة (السيريالية) الذي أعلنه الشاعر الفرنسي " أندريه بريتون " عام ١٩٢٤ ، كان " بيكاسو " يستخدم هذا الأسلوب (السيريالي) في لوحاته التي ظهرت في معرض " باريس " في العام التالي ، وكانت أبرز لوحات هذه المرحلة أولاها : (الراقصون الثلاثة)..

ومن عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٣٥ انحاز " بيكاسو " للنحت نتيجة للقائه بامرأة جميلة ، تزوج منها ، وأنجبت منه " مابا " .. وفي هذه الفترة ، صدر

أول كتاب عنه من تأليف " بونهاد " وعددا من القصائد في (كراسات الفن) على أثر خلافه مع زوجته الجديدة .

ويشهد مطلع عام ١٩٣٧ ، مرحلة فريدة ومتميزة ، في مسيرة "بيكاسو" الفنية والانسانية ، فقد اندلعت الحرب الأهلية الأسبانية وضربت قرية "جرنيكا" بقذائف النازي بالاتفاق مع الجنرال " فرانكو " مما دفع " بيكاسو " إلى تصوير هذه الجريمة البشعة في لوحته الضخمة والعظيمة " جرنيكا " .

عاد بيكاسو إلى باريس ، وتعرف إلى " دورا مار " صديقته الجديدة التي خففت من وطأة " جرنيكا " على نفسه .. وحلت سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٤١ - ١٩٤٤) فرفض " بيكاسو " مغادرة باريس بعد سقوطها في أيدي النازيـــة ، ولكنه انعزل إلى حد ما ، وقل نشاطه إلى حد كبير ، وإن لجأ إلـــى الكتابة مرة أخرى ، فكتب هذه المرة مسرحية من فصل واحد ، بعنـــوان (الرغبة مشدودة إلى ذيلها) ، كتبها في يناير ١٩٤١ وعرضت لأول مرة في مارس ١٩٤٤ ، داخل شقة أحد الأصدقاء وقام بأداء أدوارها الرئيسية إلى جانب صديقته " دورا مار " ، " سارتر ، وسيمـــون دي بوفوار، وألبير كامي " .

لم ينس " بيكاسو " أهوال الحرب بعد أن سجلها في لوحته " جرنيكا " خاصة وأن الحرب العالمية الثانية ، قد جلبت أهوالا أعمق أثرا من أهوال الحرب الأهلية الأسبانية وخاصة بعد أن فقد صديقه الحميم الشاعر "ماكس جاكوب" الذي قتل في أحد معسكرات النازي ، وكانت أهم لوحات هذه الفترة المأساوية ، لوحة تمثل العذراء ، وهي تبكي على جثمان المسيح .

وتفرغ " بيكاسو " للحفر بعد ذلك فأنتج ١٧٩ قطعة في الفترة من أواخر عام ١٩٤٥ إلى منتصف عام ١٩٤٩ ، وبعد سنوات الحرب هذه تفرغ "بيكاسو" مرة أخرى ، ولكن للخوف فأنتج ألفي قطعة كانت أبرزها (الرجل والحمل التي أهداها إلى قرية فالوري)، حيث كان يقيم في أثناء فترة تفرغه.

وتزوج " بيكاسو " من " فرنسوازجيلو " التي أنجب منها ابنه الثاني "كلود" عام ١٩٤٧ ، وابنته الثانية " بالوما " عام ١٩٤٩ ، ومن هنا سر تزايد لوحات الأمومة في هذه الفترة من حياته ، وقد سجلت " فرنسوازجيلو" بعد انفصالها عن " بيكاسو " قصة زواجها منه (١٩٤٤ – ١٩٥٤) وصدر الكتاب في مطلع الستينات بعنوان (حياتي مع بيكاسو) .

وعلى العكس من كتاب " فرناند أوليفييه " (بيكاسو وصحبه) ، وكتاب "جون بيرجر" (نجاح وفشل بيكاسو) ، ركز هذا الكتاب على الجانب الشخصي مما دفع " بيكاسو " إلى إنكار أبوته لابنيها ، ومما دفعه أيضا إلى الارتباط " بجاكلين روك " التي عرف معها الحب لأول مرة وهو في الخامسة والسبعين ، ودام هذا الحب حتى رحل " بيكاسو " بعد أن خصص لها جزءا كبيرا من ثروته الضخمة .

وبعد أن بلغ التسعين من عمره ، وبدأ يحيا حياة هادئة تماما منعزلة إلى حد ما ، أعلن " بيكاسو " أنه لن يسقط إلا والفرشاة في يده ، وهذا ما عبر عنه " لوسيان كيلوج " في فيلمه السينمائي الذي عرض خلاله ٥٠٠ لوحة من أبرز أعمال " بيكاسو " عبر تاريخه الفني الطويل والحافل ، بعنوان (بيكاسو الحرب والسلام والحب) .

في هذا العام قال " بيكاسو " : (ظللت تسعين عاما أستعيد روح . الطفولـــة ولم أستطع) . وفي هذا العام قال " بيكاسو " : لم يبتدع فن التصوير لتزيين الجدران ، بل هو أداة حرب إيجابية ضد الحرب وضد مآسي الحياة . وفي هـــذا العام كان " بيكاسو " هو الوحيد الذي استطـــاع من بين الفنانين الأحياء أن يشاهد لوحاته في قاعات متحف " اللوفر " .

وبالفعل رحل " بيكاسو " قبل أن يبلغ الثانية والتسعين بمائتي يوم لكن الفرشاة لم تسقط من يده إلا بعد رحيله بثوان معدودات .. عقب هذه الثوان المعدودات (أسدل الستار على القرن العشرين قبل نهايته بستة وعشرين عاما ومائتي وسبعة وستين يوما) ، فقد رحل رجل عظيم أثري العصر وسجل نبضاته ، وغير صورته هو الفنان العالمي " بابلو بيكاسو " .

هكذا قال الشاعر الفرنسي الشهير " رونيه شار " في مقدمته لكتالوج (معرض " بيكاسو " الأخير) الذي افتتح في مدينة أفينيون بجنوب فرنسا كواجهة مشرقة ومشرفة لمهرجانها السابع والعشرين للفنون ، الذي أقيم في صيف عام ١٩٧٣ ، والذي يقام في صيف كل عام .

أما المفكر الكبير " أندريه مالرو " ، فقد قال في كتابه الأخير (الأسى البللوري) : أن أعمال " بيكاسو " الأخيرة تعد تلخيصا لحياة طويلة وعريضة حافلـــة ومثيرة عبرت من الحزن الصامت ، إلى الكآبة المعتمة إلى الحنين المؤرق إلى الثورة الاجتماعية إلى السلام العالمي ، إلى العثور على الذات ، إلـــى البهجة بالحياة ، إلى التفاؤل والأمل ، حيث مر"بيكاسو" بمراحل شعورية وفكرية ولونية وأسلوبية متعددة ومتنوعة حتى عاد في مرحلتـــه الأخيرة إلى (وجه الإنسان) يرى فيه نفسه (رساما شابا) ويرى فيه الأطفال (براءة ومستقبلا) ، ويرى فيه المسيح (تضحية وخلاصا) ولكنها جميعا تلك

الوجوه النابضة التي لا تزال عيونها تتميز بذلك البريق الحاد العنيف ، وهي تتأمل وتتطلع مثل عينيه تماما ودائما نحو المجهول .

حقا ، ترك " بيكاسو " عالمنا المجهول ، إلى عالم آخر مجهول على الأقل بالنسبة لنا جميعا ! .